1



سلسلة نقض الخطاب الإسرائيلي

قراءة نقدية في مقولة أرض بلا شعب لشعبٍ بلا أرضٍ

إعداد
محمد عبد العزيز يوسف

قسم الأبحاث والمعلومات
مؤسسة القدس الدولية
تشرين ثانٍ/نوفمبر 2016



قراءة نقدية في مقولة
أرضٌ بلا شعب لشعبٍ بلا أرضٍ

إعــداد

محمد عبد العزيز يوسف

قسم الأبحاث والمعلومات
مؤسسة القدس الدولية

تشرين ثانٍ/نوفمبر 2016

الطبعة الأولى

2016 م – 1438 هـ

بيروت – لبنان

ISBN 978-9953-0-3928-2

مؤسسة القدس الدولية

تلفون 751725 1 961 +

تلفاكس 751726 1 961 +

بريد إلكتروني: info@alquds-online.org

الموقع: www.alquds-online.org

التصميم والإخراج الفنّي

آية قبلاوي

المحتويات

مقدمة مؤسسة القدس الدولية

هذه الدراسة هي الأولى ضمن سلسلة "نقض الخطاب الإسرائيليّ" التي تخصّصها مؤسسة القدس الدولية لتعزيز أدوات المواجهة في ميدان الفكر في إطار معركة الردّ على الشبهات والأكاذيب التي بثّتها، ولا تزال، الصّهيونيّة ومن دعمَها لاحتلال فلسطين وتحويلها غصْبًا إلى دولة لليهود. في فلسطين بدت القصة مقلوبة، فقد حدّدتِ الدولُ الاستعمارية الكبرى هدفَها في زرع دولة دخيلة وغريبة في جسد الأمة العربية والإسلامية، وتوافق ذلك مع ميل لدى قادة اليهود والحركة الصهيونية، ثمّ بدأت عملية تحريف التاريخ وعلم الآثار، وعلم الاجتماع، والنصوص الدينية لتتواءم مع هدف احتلال فلسطين وطرد أهلها. إذًا، لم يكن ثمّة حقٌّ أصيل لليهود في فلسطين ثم جرى العمل على استعادته، إنما كانت الأمور معكوسة، فقد اختُلق هذا "الحق"، ثم بدأ تصنيع الأدلة الكاذبة والمتناقضة للقول بشرعيته وأقدميّته.

إنّ مواجهة المزاعم والشبهات الإسرائيلية تتطلب معرفةَ المرتكزات التي قامت عليها، وسرَّ نجاح هذه المزاعم رغم كونها أكاذيب ليس أكثر، ومعرفةَ أنّ آلة التضليل الإسرائيلية والدولية التي تتبنّى روايتها كانت ولا تزال قويّة جدًّا إلى حدّ أنها نجحت في البقاء والهيمنة مدةً تقارب المئة عام. إنّ تفكيك الرواية الإسرائيلية المكذوبة يحتاج إلى جهود جبّارة على مستوى الردود العلميّة والمنهجيّة، وإبراز الرواية العربية والإسلامية الصحيحة، وعلى مستوى إعداد المنظومة السياسية والإعلامية والتعبوية والثقافية والحقوقية التي تحملُ هذه الردود، وتنافسُ الرواية الإسرائيلية في المساحات والميادين المختلفة، لا سيما لدى المجتمعات التي انطلى عليها الخداع والوهم اللذيْن تركّزا عنوةً في المناهج الدراسية، والثقافة المجتمعية، والخطاب السياسي والإعلامي.

لسنا في بداية الطريق في معركة تفكيك الخطاب الإسرائيلي، فثمّة جهود بُذلت في هذا المضمار، ونحن في هذه السلسلة نضمّ جهودنا إلى جهود غيرنا؛ فمن المؤكد أن هذه المعركة تحتاج إلى تجييش بحثيّ أوسع، ومنبر معبِّر أقوى؛ لأنها معركة أساسية مع المشروع الصهيوني والاحتلال الإسرائيليّ، والدول الاستعمارية. وقد بدأت ملامح اهتزاز الرواية الإسرائيليّة تتبدّى، ويكفي لذلك دليلًا أنّ مركز أبحاث الأمن القوميّ الإسرائيليّ أقرّ في تقريره الاستراتيجيّ لعام 2015 أنّ مخاطر نزع الشرعية عن "إسرائيل" ومقاطعتها تحتلّ المرتبة الرابعة في سُلّم التهديدات الأربعة الكبرى التي هددت "إسرائيل" خلال عام 2015، ويُتوقع أن يستمرّ تهديدها، وهذه المخاطر تحتلّ ما نسبته 15 % من مجمل المخاطر والتهديدات.

هذه الدراسة التي تحمل عنوان "قراءة نقديّة في مقولة أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرضٍ" محاولة منهجية نقديّة جادّة من قبل الباحث الأستاذ محمد عبد العزيز يوسف، لنقض هذه المقولة، والردّ على منطلقاتها. ورغم كونها دراسة غير موسّعة، إلّا أنها نجحت في فكّ بعض العُرى في الرواية الإسرائيلية عبر نقض مزاعم الدراسات التوراتية، وعلم الآثار التوراتيّ، وأسطورة "الاستمرار اليهودي"، والعلاقة بين الصهونية والمشروع الاستعماري الغربي. ومعلوم أنّ هذه المقولة هي من أخطر المقولات التي وُظّفت في سياق سياسيّ واستعماريّ برّرتِ العصاباتُ الصهيونية والدولُ الاستعمارية عبره طردَ شعب فلسطين، ونهبَ الأرض، وتنفيذَ المجازر، وسحقَ من تبقّى من الفلسطينيين في وطنهم بذريعة "شعب اللّه المختار" التي تدّعي "التفوّق العرقيّ" لليهود، وأنّ تلك الكائنات الموجودة في "أرض إسرائيل" هي كائنات مجهرية لا يستأهلُ سحقُها أيّ اعتراض!.

هشام يعقوب

رئيس قسم الأبحاث والمعلومات

مقدمة الباحث

بعد تحويل فلسطين إلى صحراء تاريخية، تمّ تحويلها إلى صحراء جغرافية: "أرض من دون شعب لشعب من دون أرض". وقد تمّ هذا الأمر من خلال عدة أطروحات أهمها: مزاعم خطاب الدراسات التوراتية، الذي يدّعي أنه فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة، والذي يختزل فلسطين لمصلحة "أرض الميعاد" للدلالة على "إسرائيل". ومزاعم علم الآثار التوراتي الذي اعتُبرَ أحد المصادر الرئيسية اللازمة لإعادة بناء ماضٍ في ضوء الصراعات الحديثة من أجل إقامة دولة قومية، والذي تحكمت المسلمات اللاهوتية والسياسية في تحديد استراتيجيات البحث فيه، وكذلك في تحديد طبيعة النتائج وكيفية استخدامها. ومن مزاعم الصهيونية أيضًا أنها أوجدت تتابعًا عرقيًا وعنصريًا لأعضاء الجماعات اليهودية، بسلالات وهمية، لأجل تبرير العودة إلى "أرض الأجداد". ويُعبر عن تلك الظاهرة بمصطلح "الاستمرار اليهودي". ويعتمد هذا المفهوم على قياس تاريخ زائف، إذ يفترض أن الظواهر التي تحيط بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم. وبناء على هذه المقولة منح اليهود لأنفسهم شرعية اغتصاب فلسطين، وطرد أهلها.

وفوق كل ذلك، فإن الصهيونية –كحركة– ليست بعيدة عن المشروع الكولونيالي الغربي. فما هو قائم بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية أشبه بعقد صامت –غير مكتوب– أي أنّ كلمة عقد هنا تستخدم مجازًا. ومع هذا يمكن القول بأن هذه الصورة المجازية تتواتر في الأدبيات الصهيونية غير اليهودية، ثمّ تنتقل الكلمة إلى كتابات الصهاينة اليهود. وقد تجلى واضحًا هذا العقد الصامت فيما اصطلح عليه بـ"الوعود البلفورية"، وهي مجموعة من التصريحات التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب يدعون فيها اليهود لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وهكذا

التقت الإمبريالية الغربية مع الصهيونية لقاءً تاريخيًا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة.

إن مفهومي المكان والزمان غاية في الأهمية للمؤرخ، ولكنهما مألوفان لديه لدرجة أنه لا يكاد يرى أنهما يستحقان أي بحث مفصّل، فالرأي السائد هو أن هذه أمور لا ينبغي أن يتوقف عندها المؤرخ أو القارئ طويلًا، إذ إنها من المسلمات التي تساعد على تحديد المسألة من الناحية الزمنية والجغرافية فقط.

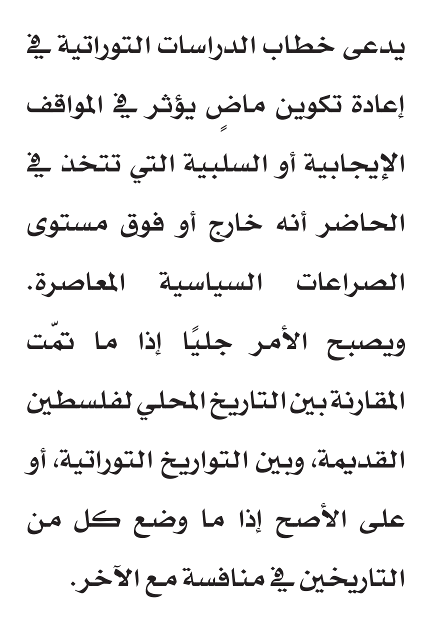
وكثيرًا ما يقال إن التسلسُل الزمني هو العمود الفقري للكتابة التاريخية. أما الحقائق المتعلقة بالمكان فهي بمنزلة المسرح الذي تُؤدى عليه أحداث التاريخ. إن مفهومي الزمان والمكان تمامًا "كالماضي"، بناءات فكرية كثيرًا ما يتم تداولها بوصفها جزءًا من خطاب خفي (غير معلن) في تشكيل الهوية الاجتماعية، في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنكار الهويات المنافسة التي تطالب بالزمان والمكان نفسيهما. وفي السياق الراهن، يؤثر هذا في الصراع الحالي بين "إسرائيل" المعاصرة والفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال داخل فلسطين وأولئك الموجودين في المنفى.

ولهذا السبب فإن استعمال كلمة "فلسطين" أو عبارة "التاريخ الفلسطيني" في المجال الأكاديمي لا بد أن يكون مثيرًا للجدل. لذلك، يقول إدوارد سعيد إنه: "لا يوجد حياد، لا يمكن أن يكون هناك حياد وموضوعية فيما يتعلق بفلسطين".

المحور الأول

الدراسات التوراتية:





يدعى خطاب الدراسات التوراتية في إعادة تكوين ماضٍ يؤثر في المواقف الإيجابية أو السلبية التي تتخذ في الحاضر أنه خارج أو فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة. ويصبح الأمر جليًا إذا ما تمّت المقارنة بين التاريخ المحلي لفلسطين القديمة، وبين التواريخ التوراتية، أو على الأصح إذا ما وضع كل من التاريخين في منافسة مع الآخر.

خطاب الدراسات التوراتية يعلن أنه قد بقي بعيدًا عن الوضع السياسي الحالي، بينما استمر في إنكار المكان والزمان على الفلسطينيين مهما طالبوا بحقهم في الماضي، وقد أعطى هذا الخطاب التوراتي الزمان، وكذلك المكان الجغرافي لـ"إسرائيل" فقط.

وتختزل الدراسات التوراتية فلسطين لمصلحة "أرض الميعاد" للدلالة على "إسرائيل": أنها ليست وطن فلسطين أو الشعوب الأصلية، وهي أيضًا "تصور الأرض على أنها جرداء

خالية، وإذا ذكر أيّ شعب آخر عن طريق المصادفة، فإنه شعب مجهول إلى حدّ كبير"[1]. وتصبح فلسطين مأهولةً وذات أهمية في حالةٍ واحدةٍ فقط، وهي تحقيق الوعد ودخول "إسرائيل" على مسرح الأحداث. وتصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها "فارغة" له ما يوازيه في العلوم التوراتية في تكوينها للماضي، الذي يتجاهل وجود شعوب محلية في مراحل عديدة من التاريخ. ومرة أخرى، فإن وضع "إسرائيل" "الفريد" هو الذي يسمح لها بتجاوز هذه الأوضاع الشاذة: فالتاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود، أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ "إسرائيل"، وإمعانًا في سياسة إسكات التاريخ الفلسطيني، وظفت الدراسات التوراتية عددًا مذهلًا من التعبيرات للدلالة على المنطقة "الأرض المقدسة"، "أرض التوراة"، "إرتس يسرائيل"، أو "أرض إسرائيل"، "إسرائيل"، "يهودا"، "كنعان"، "شرق الأردن"، "فلسطين السّورية"... تبدو كل هذه التعبيرات للقارئ مترادفة، بل حتى حيادية.

إلا أن تسمية الأرض تتضمن معاني السيطرة على هذه الأرض. فبعد تحويل فلسطين إلى صحراء تاريخية، تمّ تحويلها إلى صحراء جغرافية: "أرض من دون شعب لشعب من دون أرض"، حسب الصيغة المشهورة لإسرائيل زانغويل.

والوقوف عند الدراسات التوراتية وأساطير الصهيونية أمر لا بدّ منه. وفي هذا السياق نذكر ما يأتي:

يعرض لنا رواة التوراة تاريخ أصول "إسرائيل" كسلسلة من العصور المحددة تحديدًا دقيقًا. فهم يدرجون كل الذكريات والقصص والخرافات والحكايات والأشعار التي انتقلت إليهم عبر التراث الشفهي، ضمن إطار محدد للأنساب والتواريخ. ويتفق معظم الشراح المحدثين على أن هذه الصورة التاريخية لا تعدو أن تكون صورة وهمية إلى حدّ

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة (249)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، أيلول/ سبتمبر 1999، ص 90.



إسرائيل زانغويل

كبير. وقد برهن المؤرخون أن تقسيم التاريخ إلى عصور متعاقبة (الآباء - السُّخرة في مصر - غزو كنعان) هو تقسيم مصطنع. وفي معرض إيجازها للتفسيرات المعاصرة، كتبت السيدة فرانسواز سميث، عميدة كلية اللاهوت البروتستانتي في باريس قائلة: "لقد خلصت البحوث التاريخية التي أجريت مؤخرًا إلى أن الروايات التقليدية عن الخروج من مصر، وغزو كنعان، والوحدة القومية الإسرائيلية قبل النفي، لا تعدو أن تكون قصصًا خيالية، فالرواية التاريخية التوراتية لا تعرض لنا معلومات عمّا تقُصه، بل عمن يروونها"[1].

وفي تعبيرٍ واضح عن زيف المزاعم التاريخية –لا سيما التوراتية– تقول رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة جولدا مائير: "لقد وجدت هذه البلاد باعتبارها تنفيذًا لوعد صادر عن الله ذاته، ومن المثير للضحك أن يطلب منه بيانات على شرعية ذلك". ويكرر ذلك من بعدها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيجن قائلًا:

1 فرانسواز سميث: البروتستانت والتوراة وإسرائيل منذ عام 1948، مجلة لالتر، العدد 313، تشرين ثانٍ/نوفمبر 1948، ص 994.

"إن هذه الأرض قد وُعدنا بها، ولنا الحق عليها". ويقول وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان: "بما أننا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، لا بدّ أن نملك كذلك الأرض التوراتية، وأرض القضاة والحاخاميين والقدس والهبرون وأريحا، ومناطق أخرى أيضًا".

هكذا يستعيدُ القادة الصهاينة الإسرائيليون باستمرار، سواء اعتبروا أنفسهم من اليمين أم من اليسار، أعضاء في حزب العمل أم في الليكود، ناطقين باسم الجيش أم باسم الحاخامية، "حجة" توراتية لإسناد المطالبة بالأرض، و"حقًا إلهيًا" بملكية فلسطين. وتجري الأمور كما لو أنه يمكن إبراز قرار هبة من الله، يبرّر بالاستنتاج حق نزع الملكية حيال أي مقيم آخر على هذه الأرض.


جولدا مائير


موشيه دايان

إن "هذا المفهوم "للوعد" ووسائل تحقيقه، مثل موضوعات "الشعب المختار" و"إسرائيل الكبرى" من النيل إلى الفرات، كلها تؤلف الأساس الأيديولوجي للصهيونية السياسية"[1].

ومصطلح "الشعب المختار" تعبير عن مقولة أساسية في النسق الديني اليهودي، وتعبير في الوقت نفسه عن الطبقة الحلولية التي تشكلت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي. والثالوت الحلولي مكون من: الإله والأرض والشعب، فيحل الإله في الأرض لتصبح أرضًا مقدسة ومركزًا للكون، ويحل في الشعب ليصبح شعبًا مختارًا ومقدسًا وأزليًا. وقد حاول كثير من حاخامات اليهود وفقهائهم ومفكريهم تفسير فكرة الاختيار فطرحت تفسيرات كثيرة، وعلى وجه العموم فكرة الاختيار تؤكد الانفصال والانعزال عن الآخرين.

- وأهم تفسيرات الاختيار هي:

1. الاختيار علامة على التفوق.
2. الاختيار تكليف ديني.
3. الاختيار أمر رباني وسرّ من الأسرار.

وأسطورة الشعب المختار عززت النزعة المشيحانية في الفكر الديني اليهودي، كما عززت الإحساس الزائف لدى أعضاء الجماعة اليهودية بأنهم خارج التاريخ ولا تسري عليهم قوانينه. وفي العصر الحديث حاول بعض المفكرين اليهود تخفيف حدة مفهوم الشعب المختار فقيل إن كل شعب يتم اختياره ليكون له نصيب من تاريخ البشرية غير أن نصيب الشعب اليهودي أكبر من نصيب أي شعب آخر.

1 روجيه جارودي، إسرائيل بين اليهودية والصهيونية، ترجمة حسين حيدر، دار التضامن، بيروت، 1990، ص 49.

و"تسيطر فكرة الشعب المختار على الفكر الصهيوني بجميع اتجاهاته. وقد ظهرت فكرة الاختيار كسّر من الأسرار الدينية في لاهوت موت الإله ولاهوت ما بعد أوشفيتس"[1].

كما أسهمت فكرة الاختيار في نشر كثير من الأوهام والشائعات عن أعضاء الجماعات اليهودية مثل "بروتوكولات حكماء صهيون" والمؤامرة اليهودية الكبرى. وقد ظهرت عدة تعبيرات تتصل بفكرة الاختيار أهمها: "الشعب المقدس"، "أمة الروح"، "البقية الصالحة"، و"جماعة يسرائيل"، وهناك تعبيرا "العهد" و"الميثاق"، وهما يشيران إلى حقيقة أن الفكر الديني اليهودي يدور حول العهود التي قطعها الإله على نفسه لـ"إسرائيل".

وقد فتش الاستعماريون في كل زمان وفي كل شعب عن "التبرير" لاغتصابهم وسيطرتهم. وكانت الحجة دائمًا وبصورة عامة "التفوق" في الحضارة المزعومة التي تعطي المحتل "مهمة تمدينية" لعرقه حيال الآخرين، وكانت الحجة الدينية مادة إضافية ثمينة للغزو الاستعماري، أو بصورة أعم لإخضاع فئة اجتماعية من قِبل أخرى.

وحين يرى شعب نفسه "الشعب المختار" من الله، "يجيز لنفسه أن يكون المكلف المطلق"[2]. فكان الفرنسيون الذراع التي يستخدمها الله، كما كانت الحملات الصليبية، وكانت إسبانيا في عهد الملوك الكاثوليكيين هي إسبانيا محاكم التفتيش والإبادة لهنود أمريكا. وروسيا القديمة هي روسيا مذابح اليهود. وكانت ألمانيا البسماركية، قبل أن تصبح ألمانيا الهتلرية أو الأوشفيتسية. وكان الكاردنيال سبيلمان يخاطب هيئة الحملة الأمريكية إلى فيتنام قائلًا: "أنتم جنود المسيح!".

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلد 2، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص 26.
2 روجيه جارودي، مرجع سابق، ص 88.

ونذكر أن نقدنا موجه إلى الصهيونية السياسية حصرًا، لأنها تستغلُّ موضوعة الاختيار في اتجاه استثارة التفوق الذي يقدم كأيديولوجية للتبرير بالمعنى الذي تحدث فيه روديارد كيبلينغ عن "عبء الرجل الأبيض".

إن فكرة الشعب المختار فكرة طفولية تاريخيًا، لأن جميع الشعوب، في الكتابات الصادرة عنها، قد عبّرت عن هذا المفهوم بصورة متميزة لديها، وترجمته بعبارات اصطفائية.

إنها فكرة إجرامية سياسيًا، لأنها قدّست أعمال العدوان والتوسع والسيطرة. وهي لا تقبل لاهوتيًا، لأن فكرة المختار تنطوي على "المستبعِد".

وكل سياسة تزعم أنها تستند إلى هذه الأسطورة، تعود إلى نفي ورفض للآخر (الأرض التي بلا شعب). وليس هناك لاهوت للوحدة، ذلك أن الإنسان الوحيد والمكتفي بذاته، ليس فيه شيء من الله.

ولا يخرج الاستعمار الصهيوني عن هذه القاعدة. وقد رأينا كيف ينطوي على نفي وجود الشعب الفلسطيني ذاته (جولدا مائير) وعلى طرده، من دير ياسين إلى بيروت.

المحور الثاني
علم الآثار التوراتي:

إن البحث عن "إسرائيل" لم يقتصر على ميدان اللاهوت أو الدراسات التوراتية. ولم يكتف الصهاينة بنحت المصطلحات كـ"شعب الله المختار" و"الأرض الموعودة" لتسويغ احتلالهم واستعمارهم لأرض فلسطين في الوقت الحالي. وتجدر الإشارة هنا إلى علم الآثار التوراتي، حيث تحكمت المُسلَّمات اللاهوتية والسياسية في تحديد استراتيجيات البحث، وكذلك في تحديد طبيعة النتائج وكيفية استخدامها. وهذا ينفي عن البحث صفة الموضوعية التي تجعله معلومات موضوعية للمؤرخ، مما يمكنه من سرد قصة تعكس رؤية موثوقًا فيها للماضي. كما أن الافتتان بـ"إسرائيل" هو الذي هيمن على علم الآثار التوراتي. وتسيطر "إسرائيل" على جدول أعمال البحث، وهي التي تحدد فرضيات البحث الأثري والتاريخي. لقد "أثرت الدراسات التوراتية بشكل قوي في



تتحكم المُسلَّمات اللاهوتية والسياسية في استراتيجيات البحث عن الآثار بالنسبة إلى الاحتلال



لا تتوقف الحفريات الإسرائيلية في القدس وعموم فلسطين لإثبات تاريخ مختلق لليهود

الاستثمار الأولي للمصادر الثمينة في الحفريات وأعمال المسح الميدانية، وهي السبب وراء البحث المهيمن عن "إسرائيل القديمة"[1].

وهذا الانحياز يتضح في المناطق التي حصلت فيها أعمال مسح مكثفة. فقد حدث في أكثر من حالة، عندما نشرت نتيجة الأبحاث، أن تبيّن أن التركيز كان على العصر الحديدي، وهي فترة "إسرائيل" الأساسية. وقد كان الاهتمام الأساسي في نتائج الأبحاث ينصب على تحديد نوعية الاستيطان الإسرائيلي ومداه أو تطور المملكة، أما الفترات السابقة واللاحقة فلم يتم الاهتمام بها بما فيه الكفاية، سواء في مجال نشر نتائج الأبحاث أم في التحليل المفصل للمعلومات. وينبغي دراسة أنماط الاستيطان وإيقاعاته، ومعرفة أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها على المدى الطويل. ومن المهم جدًا محاولة فهم كيف يمكن تحديد موقع أو فترة من الفترات في تاريخ الاستيطان، وذلك بمقارنتها مع الفترات السابقة واللاحقة من العصر الحجري حتى الوقت الحاضر.

ولن تصبح هذه المهمة ممكنة قبل استطلاع ومسح كل المناطق بقدر واحد من الاهتمام والتركيز. وما لا يقل أهمية، هو نشر جميع المعلومات المتعلقة بتلك الفترات، وليس فقط تلك المعلومات التي يهتم بها علماء الآثار التوراتيون بشكل أساسي لأنها تتعلق

1 كيث وايتلام، مرجع سابق، ص 285.

بنشوء "إسرائيل" وتطورها. وهناك مفارقة تتجسَّد في أعمال المسح التي تمت حتى الآن، فهي أساسية في البحث عن التاريخ الفلسطيني، ولكنها أيضًا تعبير عن "الحق الإسرائيلي" في الأرض عن طريق رسم الخرائط والتصور المجرد لهذه الأرض.

وعلى سبيل المثال، أدت عملية تركيز الجهود على الضفة الغربية المحتلة إلى دعم البحث عن "إسرائيل" القديمة كما يتخيله التراث التوراتي. إنه ادعاء بالحق في الأرض عن طريق إطلاق الأسماء ورسم الخرائط، واكتشاف المواقع الإسرائيلية في هذه المنطقة الحسّاسة سياسيًا، لا بد أن تكون له نتائج سياسية في الحاضر. وتجدر الإشارة إلى أن جميع المناطق التي يُعتقد أنها كانت "كنعانية"، خاصة في منطقة السهول الساحلية، لم تكن هدفًا لمثل هذا البحث المركز. وتبدو واضحة إسقاطات مقولة "أرض بلا شعب" على توجهات علماء الآثار التوراتيين، فاحتلال "أرض إسرائيل" هو المهم، أما الآخرون الذين سكنوا في هذه الأرض فليست أحقيتهم ذات أهمية.

إن انحياز البحث الأثري تحدده المواقع التي يتم التنقيب عنها، أو نوعية المناطق التي يتم استكشافها ومسحها: فما يجري البحث عنه يحدد ما يتم الاهتداء إليه، إلى حدّ بعيد. إنها عملية تضفي الشرعية على بعض أوجه الماضي، لا على الأوجه الأخرى: وهي تستهدف تحديد موقع "إسرائيل"، ولا يهمها إيضاح التاريخ الفلسطيني بشكل عام. لقد كان من مبادئ علم الآثار التوراتي تحديد هوية المواقع الإسرائيلية والآثار المادية الإسرائيلية. كما أن البحث عن هذه الحقائق المادية، وتحديد موقعها في أمكنة مختلفة من العالم، هو عامل حاسم في بناء الهوية الاجتماعية أو تأكيدها. فاكتشاف الماضي يوفر عامل التحام يساعد على تأكيد الحاضر.

ويُعدُّ علم الآثار أحد المصادر الرئيسية للمواد الخام اللازمة لإعادة بناء ماضٍ في ضوء الصراعات الحديثة من أجل إقامة دول قومية. فعلى سبيل المثال، تُعدُّ جميع الرموز

الوطنية الإسرائيلية الأساسية كختم الدولة، والميداليات والنقود وطوابع البريد، مشتقة في واقع الأمر من الآثار. فالآثار تؤكد الحضور المادي والحق في الأرض، فضلًا عن أنها تقوي الشعور بالهوية. ومن هنا كان ذلك جانبًا مهمًا من جوانب اختلاق "إسرائيل القديمة" منذ بداية التنقيب الأثري التوراتي، ولكن أهميته ازدادت منذ بدء الهجرة الصهيونية إلى فلسطين.

لقد تسترت حكاية امتلاك الماضي تحت قناع الموضوعية والبحث العلمي. وهكذا تلاقى بحث الدراسات التوراتية –المدفوع بدافع ديني– مع البحث عن "إسرائيل الحديثة" المدفوع بدوافع سياسية. فتحول علم الآثار إلى خادم للحاضر، وقد أحرز في "إسرائيل" تقدمًا يفوق ما أحرزه في أي مكان آخر في العالم الحديث. وقد حدث في ألمانيا النازية ربط مماثل بين مقتضيات التاريخ المعاصر، ووقائع التاريخ القديم. وهو ربط زائف. ويتضح ذلك مما عرضه التلفزيون البريطاني، في القناة الرابعة في 1999/8/19 في برنامج بعنوان: "بحث هتلر عن الكنائس المقدسة"، حيث يتضح أن هتلر بدأ نشاطه السياسي عُضوًا في جماعة صغيرة ذات أهداف دينية محافظة، تعتقد بأن العنصر الجرماني يرجع أصله إلى قارة أطلنطا المفقودة –أي أنها تربط نشأة هذا العنصر بأسطورة أطلنطا المعروفة– وبعد غرق القارة فإن المطلوب هو إحياء هذه الحضارة القديمة، وكان ذلك هو الهدف الذي تنادي به الجماعة الصغيرة التي كان هتلر ينتمي إليها في البداية. ويبدو أن هذا النوع من التفكير ظل يلازم هتلر بعد اعتلائه الحكم في ألمانيا سنة 1933، لأنه أصدر تعليمات مشددة إلى كُل المشتغلين بعلوم الآثار في ألمانيا لكي ينقبوا بحثًا عن أيّ آثار تثبت وجود هذه الأسطورة في الواقع القديم. ولكن جهود هؤلاء العلماء لم تُسْفِر عن أي شيء، أيّ أن هتلر استخدم علم الآثار من أجل تبرير أسطورة تُبنى عليها الدولة الجرمانية الحديثة، التي هي إعادة إحياء لأمجاد الجنس الجرماني القديم. وكل مذهب فاشي يحتاج إلى أسطورة لدعم أفكاره الأساسية، وكسب تأييد الجماهير

بواسطتها، بعد تخدير عقولهم بالأسطورة. فـ"بشكل يشبه إلى حدٍّ ما الميثولوجيات التقليدية كانت هناك حاجة إلى ماضٍ راسخ وفخم من أجل تمجيد الحاضر المتواضع والمهين ضد الناحيتين المادية والسياسية..."[1].

تُعدُّ قضية ربط الروايات التوراتية بفلسطين قديمة، ولكنها اكتسبت حيوية جديدة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، أما التحقق منها فحديث لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وحديث كذلك ظهور ما يُسمى "المشكلة التوراتية"، أي استعصاء هذا الربط كلما تقدمت التقنيات الأثرية واتسعت الهوّة بين تاريخ فلسطين المستمد من آثارها وتاريخ فلسطين التوراتي. والقارئ لأي كتاب غربي معاصر يتناول الآثار الفلسطينية يصادفه تعبير "المشكلة التوراتية" باستمرار، وفي كل صفحة يتحدث فيها الباحثون عن صعوبة اكتشاف أي صلة بين مدينة فلسطينية أو تل أو حجر وبين ما تقوله التوراة. وتصادفه تعابير من نوع "لسوء الحظ لا دليل على ما ترويه التوراة"، أو "هذا هو كل ما يمكن قوله بمصطلحات علم الآثار" أو "وأظهرت القراءة العلمية للكتابات على القطع الفخارية أن العالم الفلاني كان يستخدم مُخيلته الخصبة..." وهكذا.

ولعل ما حصل مع الباحث البريطاني كيث وايتلام يُجسِّد تلك المشكلة: فحين حاول كتابة تاريخ لفلسطين القديمة من واقع المعطيات الأثرية وأنماط الاستيطان والاقتصاد والطبقة البشرية، واجهته عقبة اسمها سلطة الخطاب التوراتي اللاهوتي المهمين على تاريخ فلسطين منذ القرن التاسع عشر وصولاً إلى القرن العشرين.

ويوضح وايتلام أن الخطاب التوراتي تجاهل تاريخ فلسطين القديمة وحاول إخراسه، لأن موقع عناية هذا الخطاب اللاهوتي المهيمن كان اختراع "إسرائيل قديمة" وفق نموذج قيام الدولة القومية الحديثة في أوروبا، وتقديمها على أنها جذر الحضارة الغربية.

1 شلُومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، ترجمة أنطوان شلحت وأسعد زعبي، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله، 2013، ص 102.

وأكثر من ذلك، لقد أثر الخطاب التوراتي بخطاب الدراسات الغربية. فشكلت هذه الأخيرة محورًا من محاور الخطاب التوراتي.

في كتاب "قرون الظلام"، يتحدث مؤلِفُهُ بيتر جيمس عن "المشكلة" التي يطرحها ما يسميه "علم الآثار التوراتي"، وهي المشكلة التي تصادف الباحثين المشبعين بالافتراضات المسبقة عن التاريخ الفلسطيني كلما حاولوا فرض التاريخ التوراتي على السجل الأثري، ووجدوا هوة واسعة بين الاثنين تأخذ بالاتساع كلما تعمق البحث والتنقيب. ويقول بيتر جيمس إن "هذه المشكلة تطرح نفسها في انقسام البحث بين فئتين، فئة عدد من الآثاريين الذين يمسكون مِعولًا بيد وتوراة باليد الأخرى، وهي فئة تفرض معتقداتها على المكتشفات الأثرية، وتحاول أن تجعلها ملائمة للمعتقدات رغم أنف الأدلة المعاكسة. أما الفئة الثانية فهي ترفض سجلات التوراة كليًا بعد أن أظهرت التنقيبات وتظهر أن لا علاقة بين ما يجده علماؤها بين أيديهم وبين المعتقدات التوراتية"[1].

إن تمحُّل عدد من العلماء لإثبات شيء أو حدث توراتي بإكمال سطور نصوص ناقصة من مخيلتهم، لم يجعلهم يضعون أيديهم على حقيقة في متناولهم، وهي أن علم الآثار الفلسطيني لا يعاني من أي "مشكلة" إذا تجاهل الباحث روايات التوراة، بل سيتخلص من الارتباك واللامنطق والتشويش الذي يسببه فرض هذه الروايات عليه. وستنحصر "المشكلة" في أن يجد المؤمنون بهذه الروايات مكانًا وزمانًا آخرين لها، إما في عالم القصص الشعبي الخيالي كما يذهب توماس تومسن، أو جغرافية أخرى لا علاقة لها بفلسطين كما يذهب د. كمال الصليبي.

1 Peter James, Centuries of Darkness: A Challenge to the Conventional Chronology of Old Word Archaeology, Pimlico, London, 1992, p 162.

إن ما أصاب علماء الآثار التوراتيين من صهاينة وغربيين هو أشبه بالهوس الأيديولوجي الذي يصيب المنقب الباحث عما يريد لا عما يجده فعلًا. والأمر مع أصحاب "المشكلة التوراتية"، ليس أنهم كرّسوا أنفسهم لإيجاد ارتباط غير موجود بين رواية ومكتشفات أثرية فقط، بل إنهم يتهمون المكتشفات الآثارية نفسها بالخرس، أو الخيانة أحيانًا. ومن الجرائم في علم الآثار القيام بتنقيب أثري بتفكير مُسبق يعتمد الاستدلال، فثمة أهداف معينة تكون لدى الباحث الأثري قبل البدء بأية أعمال حفرية، وسيقوم الباحث بالحفر في موقع أثري ما بقصد البحث عن دلائل ومستندات تاريخية لفكرة يريد أن يثبتها ويبرهن عليها، وغالبًا ما يصل الباحث إلى هذا، ولكنه سيدمر بلا شك شواهد وطبقات أثرية يمكن أن تتناقض مع نظرياته، ولا يمكنه بالنتيجة أن يعرف ما حدث فعلًا في موقعه الأثري الذي ينقب فيه، وهو بهذا يقوم بعملية تزييف للتاريخ، إضافة إلى حرمان علم الآثار من وثائق يتجاوزها في أثناء الحفر، كان يمكن أن تساعد بمعرفة الحقيقة على وضع علم حقيقي لتاريخ المنطقة التي يتم فيها التنقيب.

وهذا ما حصل بالضبط في الحفريات المبكرة في مدينة القدس، حيث اتبع المنقبون طريقة الحفر بالأنفاق بحثًا عن افتراض وهمي وهو وجود أساسات المعبد اليهودي الذي لم يكن هناك في يوم من الأيام، فضيّعوا فرصة دراسة الطبقات الأرضية وقطع الفخار إلى الأبد. ويطلق عالم الآثار الإسباني رودريغو مارتين غالان على هذا النمط صفة: "الجرائم الأثرية الفظيعة التي ارتكبت في أزمان ماضية في الحفريات التي كانت تهدف للوصول إلى سويات محددة تعود لحضارة بعينها"[1]، وكأن غالان يتحدث عن نمط التنقيب الذي مارسه علماء الآثار اللاهوتيون في فلسطين على نحو خاص.

1 رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث لأثري ومشكلاته، ترجمة خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1998، ص 18.



حفريات أثرية إسرائيلية في القدس

بالرغم من كل سياسات الإقصاء والإسكات هذه، بدأ يتزايد الاعتراف بالصعوبات الكبرى الناجمة عن محاولات الربط بين السجل التوراتي والأدلة التي يتوصل إليها علم الآثار بين علماء الآثار أنفسهم. وانتقل بعض العلماء من مجرد الشك إلى اليأس من الوصول إلى نتيجة في هذا الاتجاه، ولكنه ما يقف وراء هذا اليأس عند الغالبية، ليس النوايا الطيبة ولا النزاهة العلمية المفقودة في هذا الحقل منذ انطلاق البحث فيه في القرن التاسع عشر، بل الوقائع الصّلبة، أو "صمت" الآثار الفلسطينية المحيّر بالنسبة لباحث من أمثال بيتر جيمس أدرك صعوبة بل واستحالة الربط بين أدلة علم الآثار والسجل التوراتي، إلا أنه أرجع الأمر إلى "الطبقة الخرساء" للآثار الفلسطينية في أحد أكثر جوانبها جوهرية. فليس هناك نقوش تشير إلى الأنبياء الكبار ولا حتى ملوك إسرائيل، ويشيع عدم اتساق بين الدليل الأثري والرواية الدينية في كل العصور التاريخية التي كشفت عنها التنقيبات.

إزاء هذا الواقع الذي لم يعد أحد يستطيع الهرب منه، لم يعد يوجد في تاريخ المنقبين التوراتيين سوى التحايل والتلفيق الصريح.

والأمثلة عديدة، وتتناول محاولات إثبات هوية توراتية لمواقع فلسطينية، أو تحريف أسماء معاصرة، أو انتحال أسماء عبرية مستمدة من التوراة من قبل أشخاص غزوا



فلسطين في القرن العشرين، وكل هذه المحاولات تقف وراءها أغراض سياسية لا علمية، وأيديولوجية لا تاريخية.

والمبدأ المتبع هو: إطلاق اسم توراتي على الموقع، ثمّ التنقيب واستخراج عاديات تُنسب إلى الموقع التوراتي المزعوم. وحين تثار شكوك بعض العارفين من العلماء، يُنقل اسم الموقع التوراتي إلى مكان آخر بكل بساطة، وقد حدث هذا في تسمية اسطبلات سليمان بعد الكشف عن ضلالها في تلّ المتسلم نقلوها لتطلق على المسجد المرواني الواقع أسفل الساحات الجنوبية الشرقية في المسجد الأقصى.



لقد تصدى علماء الآثار التوراتيون من يهود ومُستشرقين لعملية تهافت "المعرفة التوراتية في علم الآثار"، وذلك بالطبع عن طريق استخدام الهالة العلمية التي أحاط بها بعضهم نفسه، وبها نصب نفسه حُجة سواء في لغات المنطقة العربية التي لا يزالون يطلقون عليها اللغات الساميّة، أو في الدراسات التوراتية التي تغلق الأبواب أمام أيّ تاريخ آخر لفلسطين سوى ما يُدعى التاريخ التوراتي، أو في علم آثار منطقتنا الذي أعطوه اسم "علم الآثار التوراتي".

أطلق الاحتلال اسم اسطبلات سليمان على المسجد المرواني في الأقصى بعد الكشف عن ضلال التسمية في تل المتسلم

والفارق بين البحث الأثري العلمي في منطقتنا وبين ما يُسمى علم الآثار التوراتي يوضحه د. كمال الصليبي إذ يقول: الأول هو عبارة عن محاولات منظمة وموضوعية لدراسة الثقافات والحضارات القديمة للمنطقة وتطورها مرحلة بعد أخرى، وعلى أساس بقاياها المادية، مع الإدراك التام لحدود المعرفة التي يمكن التوصل إليها بهذه الطريقة. والثاني لا يمثل أكثر من بحث عن بقايا مادية في مناطق معينة حُددت مُسبقًا على أنها أرض التوراة، وذلك لتوفير البرهان الأثري على مفاهيم مسبقة للتاريخ التوراتي. وعندما يعثر عالم آثار توراتي على بقايا تحصينات قديمة قرب بلدة بئر السبع الفلسطينية –مثلًا– يُسمى هذه التحصينات إسرائيلية قبل أن يفكر مرة واحدة في إمكانيات أخرى.

وتُستغل في تثبيت هذه المعرفة المتهافتة وسائط الإعلام وأهواء الجمهور الذي رسخوا في ذهنه عبر التربية الدينية والسياسية صورة للمنطقة التي يسكنها طارئون عليها، في أحسن الأحوال، والخالية من السكان في أسوأ الأحوال.

من المناسب أن نختم هذا التلخيص للتحايل في نطاق الدراسات التوراتية وعلم الآثار التوراتي، بما يقوله المؤرخ البريطاني كيث وايتلام عن الهوس التوراتي: "لقد منع هذا الهوس والخطاب المهيمن العلماء والباحثين والمؤرخين من صياغة تاريخ لفلسطين القديمة، وضلل كل الأبحاث في هذا المجال"[1].

وطالب واتيلام بكتابة تاريخ لفلسطين مبني على دقائق علم الآثار والدراسة الجغرافية والاقتصادية والسكانية، بعيدًا عن الافتراضات المسبقة، أو المعتقدات المتصلبة التي تلغي وجود الآخر من أصله.

1 كيث وايتلام، مرجع سابق، ص 11.

المحور الثالث:

يدور حول فكرة أو أسطورة الاستمرار اليهودي:

ومن أساطير الصهيونية أيضًا، أسطورة الاستمرار اليهودي. فبعد أن دمرت الصهيونية التتابع التاريخي للأرض الفلسطينية، "خلقت تتابعًا عرقيًا وعنصريًا للشعب اليهودي، بسلالات وهمية، لأجل تبرير العودة إلى أرض الأجداد"[1]. ويُعبر عن تلك الظاهرة بمصطلح "الاستمرار اليهودي". وبالوقوف عند هذا المصطلح، يمكن القول إنه مصطلح يفترض أن الجماعات اليهودية تكون في العصر الحديث كُلًا متجانسًا على مستوى العالم، وأن ثمة استمرارًا تاريخيًا وثقافيًا، وأحيانًا عرقيًا، يميز التاريخ اليهودي. وبناءً على هذا المفهوم يذهب الصهاينة إلى أن يهود العصر الحاضر ورثه العبرانيين القدامى، وأن حكومة "إسرائيل" الحالية في فلسطين المحتلة هي امتداد للحكومات في العهود الغابرة.



تهجير اليهود على يد الأشوريين

و"يعتمد مفهوم الاستمرار اليهودي على قياس تاريخي زائف، إذ يفترض أن الظواهر التي تحيط بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم"[2]. وكما هو الحال مع المفاهيم الصهيونية الأخرى، نجد أن مفهوم "الاستمرار اليهودي" يستخدم لإعطاء اليهود حقوقًا مطلقة مستمرة، ويسقط حقوق الآخرين، فباسم هذا الاستمرار يدعي اليهود لأنفسهم شرعية اغتصاب فلسطين وطرد

1 روجيه جارودي، مرجع سابق، ص 49.
2 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلد 1، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص 371.

أهلها، باعتبار أن الدولة اليهودية، حسب تصورهم، وريثة الدويلات التي قامت منذ آلاف السنين.

إن جميع المصطلحات المراوغة التي تبثها الصهيونية، تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يقال لها "اليهود"، احتفظت بهويتها المستقلة، بالرغم من وجودها في أزمنة مختلفة. وهذا المفهوم، يفترض أن الجماعات اليهودية في العالم تتصف بالاستمرار والوحدة والتجانس، وهذا ما لا يتطابق مع التاريخ والواقع. فبقاء اليهود لم يكن مطلقًا، فمن الوقائع الأساسية في التاريخ العبراني واقعة تهجير القبائل العبرانية العشر من المملكة الشمالية إلى أشور، ثمّ لم يُسمع بهم بعد ذلك. والقول نفسه ينطبق على يهود الخزر الذين لا يُعرف شيئًا عن مصيرهم، كما أن نسبة كبيرة من اليهود تختفي من خلال الاندماج، فعلى الرغم من أن "عدد اليهود في القرن الأول الميلادي كان يصل إلى ما يقرب من سبعة ملايين، فإن عددهم في القرن السابع الميلادي لم يتجاوز المليون"[1]. وبناءً عليه، يُصبح من المستحيل التحدث عن اليهود بشكل عام داخل إطار تاريخي موحّد.

وفي سياق الحديث عن أسطورة العرق، يقول الدكتور جمال حمدان:

> "إن إسرائيل –كدولة– ظاهرة استعمارية صرف. فهي قد قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينيًا أو تاريخيًا أو جنسيًا، وإن زعموا عكس ذلك تمامًا ودوامًا. إن علاقة اليهود بفلسطين انقطعت تمامًا منذ نحو 20 قرنًا، لأن هناك يهودين في التاريخ، قدامى ومحدثين، ليس بينهما أي صلة أنثروبولوجية مذكورة. ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين أساسيتين طوال 20 قرنًا من الشتات في المهجر. خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية، ودخول أفواج لا تقل ضخامة في اليهودية من كل أجناس المهجر. واقترن

1 المرجع نفسه، ص 372.

هذا بتزاوج واختلاط دموي بعيد المدى، انتهى بالجسم الأساسي من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئًا مختلفًا كلية عن اليهود القدامى، ولا يعد اليهود من نسل بني إسرائيل التوراة بأي نسبة ذات بال. وبهذا فإن عودة اليهود إلى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى..."[1].

في الواقع لم يوجد "عرق يهودي" قط، إلا في هذيانات هتلر والصهيونية. وفضلًا عن عوامل التحول الديني والزواج المختلط والاندماج، كان "اليهود" في جميع مراحل التاريخ جزءًا من عناصر السلالات البشرية الكبيرة (التي لم تشكل عروقًا قط). ويصل جوزيف ريناخ" إلى استنتاج واضح: "بما أنه ليس هناك عرق يهودي، ولا أمة يهودية، وأن هناك ديانة يهودية فقط، فإن النزعة الصهيونية حماقة أكيدة، وخطأ مضاعف من ناحية التاريخ والعرق وعلم الآثار..."[2]. وفي السياق نفسه يقول مكسيم رودنسُون، "إن نظرة سريعة على اجتماع اليهود، من وجهة نظر علم الأجناس، تسمح بتقدير العوامل الأجنبية"[3]. وإن أوضح نتيجة لهذا الاهتداء إلى الرشد حيال التاريخ قد صاغها توماس كيرنان فيقول: "كان الصهيونيون أوروبيين، ولا توجد أية علاقة من علاقات علم الأحياء أو علم الأجناس بين أجداد يهود أوروبا والقبائل العبرية القديمة"[4].

وإذا افترضنا أن ادعاءات الصهيونية في أرض فلسطين محققة —من وجهة نظر الصهاينة— ثمّ تعميم هذا النمط الصهيوني من الادعاءات، لدخلت الكرة الأرضية بأسرها في الفوضى والبلبلة: فلماذا لا ينادي الإيطاليون "بالحقوق التاريخية" على فرنسا، حيث حكم الرومان بلاد الغال منذ يوليوس قيصر، لزمن أطول بكثير من زمن حكم ملوك إسرائيل على فلسطين. ولماذا لا يطالب السويديون بمنطقة النورماندي، وإنكلترا وصقلية، باسم أجدادهم النورمانديين؟ وماذا يجري لإفريقيا إذا طالب المحتلون القدامى بإعادة بناء الإمبراطورية الماندبغية أو سلطات البولز؟

1 جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجياً، دار الهلال، القاهرة، 1996، ص 115.
2 روجيه جارودي، مرجع سابق، ص 60.
3 مكسيم رودنسون، شعب يهودي أم مسألة يهودية، منشورات ماسبيرو، 1981، ص 218.
4 توماس كيرنان، العرب، طبعة ليتل براون، بوسطن، ص 1975.

حتى إذا عدنا إلى أوروبا، لنتصور أن الدول الإسلامية لجأت اليوم إلى طروحات "الحقوق التاريخية" على الأراضي التي سيطرت عليها أو شكلت أكثرية سكانها في هذه المرحلة أو تلك، وحتى إذا لم نعد إلا إلى معاهدات وَسْتفاليا، التي سجلت في سنة 1648، بداية العصور في أوروبا: أي التفكك النهائي "للمسيحية" وولادة "الأمم"، لاشتعلت أوروبا نارًا ودمًا تحت تأثير المزاعم التاريخية المتناقضة لكل دولة.

ولا شيء يُماثل الأسطورة التي أوجدتها الصهيونية السياسية. فمنذ ثلاثة آلاف سنةٍ، تشكلت بين العديد من الغزوات مملكة عارضة (73 سنة من السيطرة الفعلية) لم تتمتع قط، ولم تبحث أبدًا عن التجانس السلالي. و"أدت تحولات التاريخ إلى انهيار هذه الدولة، التي شهدت مصير جميع الإمبراطوريات وجميع أشكال السيطرة"[1]. وقد تمّ التخلص من سيطرة المحتلين الذين لم يريدوا الاندماج بالمحيط الذي كانوا يعيشون فيه، كما جرى للصليبيين الذين احتلوا فلسطين في القرن الحادي عشر، والذين عاشوا فيها عمدًا مثل جسْم غريب، وفرضوا سيطرتهم أيضًا، كما هو حال "إسرائيل" الحديثة، بالسلاح وبالتمويل من الغرب. وتمّ طردهم بعد قرنين من الاحتلال (1096–1291). وليس للدعاة المتعصبين للصهيونية السياسية من "الحقوق التاريخية" في فلسطين أكثر مما كان للصليبيين من تلك المزاعم.

وفي سياق الحديث عن أسطورة التجانس السُلالي والاتصال العرقي، يجدر طرح الأسئلة الآتية:

متى وجد "الشعب اليهودي"، هل بالتزامن مع نزول التوراة في سيناء، أم مع احتلال أرض كنعان، أم بجرَّةِ قلم تصد لها بضعة مؤرخين يهود من القرن التاسع عشر –وفي ظل تبلور الحركات القومية في أوروبا– لمهمة اختراع هذا الشعب؟

---

1 روجيه جارودي، مرجع سابق، ص 70.

في أية فترة زمنية جرى نقل كتاب التناخ من خزانة الكتب الثيولوجية إلى خزانة الكتب التاريخية القومية؟

إن الرواية التاريخية القائلة بالاستمرار اليهودي أو الاتصال العرقي والتاريخي بين اليهود القدامى واليهود المحدثين، هي رواية غير موثوق فيها على الإطلاق، بل إنها انتفت تمامًا، ولم يكن لها أي أنصار أو مريدين حتى نهاية القرن التاسع عشر، ويرى شلومو ساند أن "الحركة الصهيونية هي التي استفادت، على ركام أبحاث مفبركة، من فكرة "الشعب اليهودي الواحد" بهدف اختلاق قومية جديدة، وبهدف شحنها بغايات استعمار فلسطين"[1].

وقد تمثلت النتيجة البديهية لذلك كله في أن هذا "الوطن" —فلسطين— عائد إلى الشعب اليهودي وإليه فقط، لا إلى أولئك "القلائل" —الفلسطينيون— الذين أتوا إليه بطريق الصدفة، ولا تاريخ قوميًا لهم، وفقًا لمزاعم تلك الحركة.

بناءً على ذلك، فإن ما يمكن قوله هو: على الرغم من أن عملية "اختراع الشعب اليهودي" كانت جزءًا من عملية اختراع شعوب وأمم أوسع وأشمل شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر، إلا أن التمسُّك بالمتخيَّل القومي لدى "إسرائيل" والحركة الصهيونية كان وما يزال أشد هوسًا واستحواذًا مما لدى أمم وشعوب معاصرة أخرى. وثمة فارق نوعي آخر، فعمليات اختراع الأمم والقوميات في أوروبا، التي بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر، تمّت على مقياس جماعات كانت، في معظم الحالات، مُقيمة في بقع جغرافية متقاربة وتحلّت كل منها بخصائص إثنية مشتركة أو متشابهة (مثل اللغة في حالات كثيرة، لكن ليس فقط)، في حين أن اليهود كانوا مفتقرين إلى هذه الخصائص كليًا في البلدان المختلفة التي عاشوا فيها.

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله، 2011، ص 13.

وفي الوقت الذي تعين عل القوميات الأوروبية، برسم ما ذُكر، أن تخترع وعيًا قوميًا وتاريخًا قوميًا ورموزًا قومية، على غرار علم ونشيد قومي وطوابع بريد ولباس وأبطال قوميين ولغة جديدة أحيانًا، فإن ما تعين على اليهود اختراعه هو الشعب نفسه، وفي نهاية المطاف فإن المؤرخين الصهيونيين وجدوا "ضالتهم" في "الشعب الإسرائيلي" في فلسطين فحّولوه إلى شعب يهودي، وحوّلوا "دولة إسرائيل" من ثمّ إلى "دولة اليهود" أو "دولة الشعب اليهودي" على أرض فلسطين المقفرة والخالية من السّكان.

إلا أن إحساس الأقليات اليهودية في العالم لانتمائها إلى دين وعرق واحد، هو إحساس زائف لا تسانده أية مقومات موضوعية، وقد جابه هذا الإحساس "خطر" الزوال في القرن التاسع عشر بسبب ظهور حركة الاستنارة والرأسماليات المحلية. ولكن هجمات المعادين لليهود، ووضع اليهود الاقتصادي المتميز نوعًا ما، تسببا في إثارة النعرة الدينية العرقية اليهودية. وقد طرح الصهاينة مقولة "الشعب اليهودي"، وهي مقولة تؤكد تفرد اليهود من دون أي تحديد لسمات هذا التفرد، فاليهودية –حسب قولهم– دين ليس ككل الأديان، واليهود شعب ولكنهم ليسُوا مثل كل الشعوب، وهم قومية ولكنهم ليسُوا مثل كل القوميات، واليهودي تربطه رابطة قومية فريدة "بأرضه" لا يمكن الأغيار فهمها. ولكن هذا التفرد في واقع الأمر لا يعدو أن يكون تسمية ظواهر مختلفة غير مترابطة (الأقليات اليهودية) باسم واحد (الشعب اليهودي)، فهو ليس تفردًا بقدر ما هو خطأ في التصنيف، كأن نضع مُسلمي الهند إلى جوار مسلمي الولايات المتحدة ومسلمي تانزانيا ومسلمي مصر ثمّ نطلق عليهم لقب "القومية الإسلامية"، فهذه القومية ستكون ولا شك فريدة من نوعها غير قابلة للتقنين أو التفسير مثل أي ظاهرة صوفية"[1].

1 عبد الوهاب المسيري، الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1990، ص 61.

ويمكن القول إن مقولة "الشعب اليهودي" و"القومية اليهودية" هي حقيقة الأمر برنامج إصلاحي فاشي أو رؤية للمستقبل، وليست وصفًا لما هو قائم بالفعل، وهي مقولة مثالية تفصلها عن الواقع مسافة واسعة شاسعة. ولعل أكبر دليل على مدى ضخامة المسافة بين المثل، والواقع أن غالبية "الشعب اليهودي" ما تزال في المنفى رافضة العودة لأرض الوطن القومي. ولعله قد يكون من الطريف أن نذكر أن تيودور هرتزل، أول زعيم "قومي يهودي" لم يكن يعرف العبرية، وأنه وصف نفسه بأنه يهودي من هنغاريا يتحدث الألمانية، ولد ألمانيًا وسيموت ألمانيًا، وكانت زوجته غير مكترثة بالصهيونية!

بعد توضيح مسألتي الاتصال العرقي والقومية عند أعضاء الجماعات اليهودية، ما هي علاقة الصهيونية بالمشروع الإمبريالي الغربي الذي استهدف الشرق عمومًا وفلسطين خصوصًا؟ وهل نظر الغرب إلى الأرض المقدسة على أنها أرض خالية مقفرة أيضًا؟



تيودور هرتزل

المحور الرابع

الصهيونية والمشروع الكولونيالي الغربي:

إن ما هو قائم بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية أشبه بعقدٍ صامت. وقد قام تيودور هرتزل بوضع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية استنادًا لقيم هذه الحضارة وإلى تاريخها الفكري والاقتصادي والسياسي. ولم يكتف هرتزل بوضع العقد، وإنما قام بتأسيس المنظمة الصهيونية، التي طرحت نفسها كإطار تنظيمي يمكن من خلاله توقيع العقد مع الحضارة الغربية، والذي بموجبه تتحول الجماهير اليهودية إلى مادة استيطانية، ويدخل المشروع إلى حيّز التنفيذ. وكما أسلفنا هذا عقد صامت، غير مكتوب، أي أن كلمة "عقد" هنا تُستخدم مجازًا. ومع هذا يمكن القول بأن هذه الصورة المجازية ليست من نحتنا إلا بشكل جزئي. فهي تتواتر في الأدبيات الصهيونية غير اليهودية، ثمّ انتقلت الكلمة إلى كتابات الصهاينة اليهود. فقد أشار هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول (1897) إلى ضرورة التفاهم التام



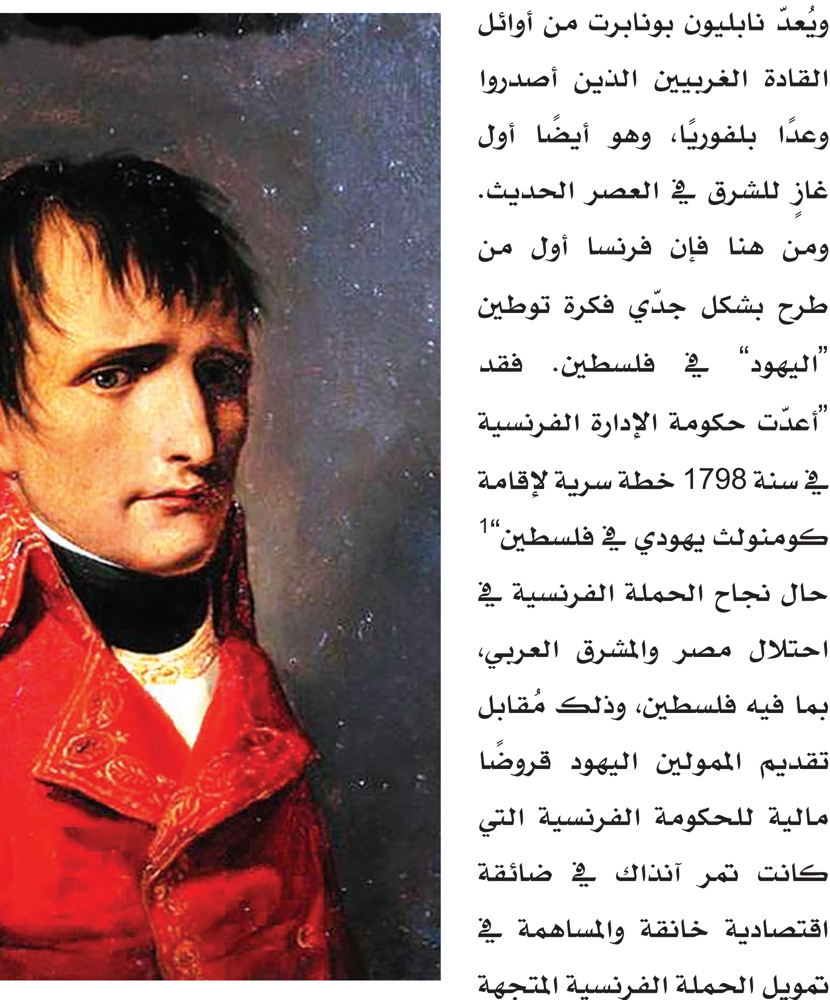
المؤتمر الصهيوني الأول - بازل سويسرا 1897

مع الوحدات السياسية المعنية، حتى تمّ الحديث عن حقوق الاستعمار، وعن المنافع التي سيقدمها "الشعب اليهودي" برمّته مقابل ما يُعطى له.

ولمّا كان هرتزل يهدف إلى تحديث المسألة اليهودية، لذا فقد كان من اللازم أن يُستخدم -فعلًا أو ضمنًا- اللغة التعاقدية النفعية التي تفهمها الحضارة الغربية. وإذا حاولنا ترجمة هذا العقد الصامت إلى لغة تعاقدية بسيطة، فإنه سيأخذ الشكل الآتي: عقد بين المنظمة الصهيونية وبين العالم الغربي، تتعهد الحركة الصهيونية بمقتضى هذا العقد بإخلاء أوروبا من يهودها وتوطينهم في منطقة خارج هذا العالم الغربي. ونظير ذلك، سيقوم الغرب -ككل- برعاية هذا المشروع ودعمه. وفي تجاهل واضح لوجود مئات الآلاف من السكان الأصليين، لم يتوجه العقد بطبيعة الحال لمشكلتهم وكيفية حلها. ومع هذا يمكن القول بأن الحلّ متضمّن في تعهد الدول الغربية بضمان بقاء دولة الكيان الصهيوني، الأمر الذي يعني استعدادها لاستخدام الآليات المألوفة المختلفة ضدّ السكان الأصليين من طرد أو إبادة أو محاصرة. وبالرغم من تناقض بنود العقد، إلا أنه تمَّ توقيعه (مجازًا) وأصبح قيام الصّهيونية بـ"خدمة اليهود والمسيحيين" -على حد قول نوردو- مُمكنًا بتوظيف المادة البشرية اليهودية في خدمة الحضارة الغربية"[1].

وقد تجلى واضحًا هذا العقد الصامت فيما اصطلح عليه بـ"الوعود البلفورية"، وهي مجموعة من التصريحات، التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب يدعون فيها "اليهود" لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين -الأرض المقفرة- ويعدون بدعمه وتأمنيه نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الدول الرّاعية كما ورد سابقًا.

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية مجلد 2، ص 215.


نابليون بونابرت

ويُعدّ نابليون بونابرت من أوائل القادة الغربيين الذين أصدروا وعدًا بلفوريًا، وهو أيضًا أول غازٍ للشرق في العصر الحديث. ومن هنا فإن فرنسا أول من طرح بشكل جدّي فكرة توطين "اليهود" في فلسطين. فقد "أعدّت حكومة الإدارة الفرنسية في سنة 1798 خطة سرية لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين"[1] في حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي، بما فيه فلسطين، وذلك مُقابل تقديم الممولين اليهود قروضًا مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك في ضائقة اقتصادية خانقة والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة نابليون. وفي ما يأتي أجزاء من نص الوعد: "من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين، أيها الإسرائيليون، أيها الشعب

1 خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908–1918، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1973، ص 12.

الفريد، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط".

وجاء في النداء أيضًا: "انهضوا إذًا بسرور أيها المبعدون إن حربًا لم يشهد لها التاريخ مثيلًا، تخوضها أمة دفاعًا عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها التي توارثوها عن الأجداد غنيمة ينبغي أن تُقسّم بينهم حسب أهوائهم".

كما توجه نابليون لليهود قائلًا: "سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السّنين للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السّنين، وهي وجودكم السياسي كأمَّةٍ بين الأمم، وحقكم الطبيعي في عبادة يهوه، طبقًا لعقيدتكم، علنًا وإلى الأبد".

كما "دعاهم للمؤازرة، طالبًا منهم العمل على إعادة احتلال وطنهم ودعم أمتهم والمحافظة عليها بعيدًا عن أطماع الطامعين لكي يصبحوا أسياد بلادهم الحقيقيين"[1].

ويعزو المؤرخ بارون أسباب تصريحات نابليون إلى "رغبته في استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق، وجمعها تحت لوائه لتحارب معه، وتكون عونًا له في دعم نفوذه وتثبيت سلطانه"[2]. كما يضيف بعض المؤرخين إلى نداء نابليون هدفًا آخر، وهو تشجيع اليهود على الاستيطان في فلسطين بُغية إيجاد حاجز مادي بشري يفصل بين مصر وسورية. واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكل منهما. ولكن وعد نابليون هذا، سرعان ما فقد قيمته بمجرد أن لحقت الهزيمة بالحملة الفرنسية أمام أسوار عكا.

وفي السياق ذاته، صدرت عدة وعود بلفورية ألمانيّة. ويمكن هنا التوقف قليلًا عند واحد من أهم إسهامات هرتزل للحركة الصهيونية، وهو أنه إذا كانت الفكرة الصهيونية إمكانية

1. Franz Kobler, The Vision was There, London, 1956, p 44.
2. S.W Baron, A Social and Religious History of the Jews, New York, 1937, p 322.

كامنة في الحضارة الغربية تود أن تتحقق، فلم يكن بإمكانها أن تخرج من عالم الوجود بالقوة إلى عالم الوجود بالفعل إلا من خلال آليات محددة، أهمها تنظيم المادة البشرية (اليهودية) التي سيتم ترحيلها، وتأسيس إطار تنظيمي يستطيع أن يتلقى الوعود وأن يقوم بتنفيذها. فقرر هرتزل أن يأخذ بزمام الأمور وأن يتوجه للدول العظمى. وقد ساعده في مسعاه هذا القس (الواعظ) الصهيوني هشلر إذ قدَّمه إلى أحد كبار المسؤولين الألمان الذي تحدث إلى القيصر عن الموضوع. وكانت ثمرة هذه الاتصالات وعد بلفوري ورد في خطاب من دون إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل.

ومن أهم ما جاء في هذا الوعد: "إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمر (توطين اليهود) مع السلطان... ويحبُّ جلالته أن يُخبركم عن استعداده أن يأخذ على عاتقه مسؤولية محْمية يهودية في حالة تأسيسها".

إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني كان قد استبق الأمور بإصدار ثلاثة فرمانات سلطانية رفضًا للهجرة اليهودية إلى فلسطين، من أهم ما جاء فيها: "... وبما أن هؤلاء ليسوا من مواطني إمبراطوريتنا فيتحتّم إرسالهم إلى أمريكا... يُرفض قبولهم وقبول غيرهم في البلاد بل يجب تهجيرهم إلى بلاد أمريكا بوضعهم في السّفن".

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية، الوعد البلفوري الروسي القيصري، فقد قام هرتزل بمقابلة فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (1901)، حتى يحصل على تصريح يعبّر عن نيات الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة 1903. وبالفعل، صدر الوعد البلفوري القيصري على النحو الآتي (في شكل رسالة وجهها فون بليفيه إلى تيودور هرتزل). وهذا أهم ما جاء في الوعد:


وزير الداخلية الروسي فون بليفيه

ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة القيصرية تحبّذ ذلك، وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا...

كذلك قام بليفيه بتزويد هرتزل برسالة موقعة منه، وبعد أن بحث محتوياتها القيصر، أعلن فيها أن الحكومة الروسية تنظر بعين العطف إلى الصهيونية ما دام هدفها إقامة دولة مستقلة في فلسطين.

وقد صدر آخر الوعود البلفورية عن ألمانيا بعد صدور وعد بلفور نفسه عن إنجلترا، إذ استغل الصهاينة الوضع الدولي الناشئ عن الجمود الذي ساد جبهات القتال في سنة 1916، واتجهوا إلى حثّ الحكومة الألمانية على إصدار بيان رسمي يتضمن العطف على الصهيونية في فلسطين، ولكن الحكومة الألمانية كانت لا تزال مرتبطة بتحالف مع الحكومة العثمانية. وحيث إن ألمانيا لن تُضحّي بتحالفها من أجل الصهاينة، فإنها ترددت كثيرًا في الاستجابة للمطلب الصهيوني.

وقد استمر الصهاينة في ضغوطهم حتى حصلوا على تصريح من وكيل وزارة الخارجية الألمانية، هذا نصّه: "نحن نؤيد رغبة الأقليات اليهودية، في البُلْدَان التي لهم فيها ثقافة متطورة، في أن تختط طريقها الخاص بها، ونميل إلى دعم أمانيها".

والقضية لم تكن قضية عدة آلاف من اليهود لا وطن لهم، أو مضطهدين في أوطانهم ويبحثون عن مأوى لهم، وإنما هي قضية غرس عنصر بشري غريب يتحول إلى دولة ذات توجه غربي استعماري استيطاني.

أما في بريطانيا، فقد بدأت فكرة توطين اليهود في فلسطين تجد كذلك اهتمامًا واسعًا لدى الدوائر الحاكمة. ولعل من أسباب الاهتمام البريطاني بالاستيطان اليهودي آنذاك هو ظهور محمد علي في مصر، ومحاولاته التوسعية الرامية إلى إقامة إمبراطورية عربية قومية تحل محل السلطنة العثمانية. فظهرت عدة محاولات كانت أشبه بإرهاصات صدور وعد بلفور في سنة 1917. فبدأ الاهتمام منذ عهد اللورد بالمرستون الذي أصدر في سنة 1839 "تعليماته إلى القنصل البريطاني في القدس وليام يونغ بمنح اليهود في فلسطين الحماية البريطانية لضمان سلامتهم وصيانة ممتلكاتهم وأموالهم"[1].



اللورد بالمرستون

1 A.L Tibawi, British Interests in Palestine 1800–1901, London, 1961, p 43.

كما قدم بالمرستون في أثناء انعقاد مؤتمر لندن في سنة 1840 مشروعًا أسماه مشروع "أرض بغير شعب لشعب بلا أرض" متضمنًا أن تتبنى الحكومة البريطانية "إعادة اليهود إلى فلسطين" وإقامة دولة خاصة بهم.

كذلك أبدى القنصل البريطاني في سورية تشارلز هنري تشرشل اهتمامه بتوطين أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين. ففي 1841/6/14 أرسل رسالة إلى الثري البريطاني اليهودي موسى مونتفيوري جاء فيها: "لا أستطيع أن أخفي رغبتي الجامحة في أن أرى مواطنيك (اليهود) يعملون جاهدين مرة أخرى لبعث وجودهم كشعب، وأنني أعتقد أن هذا الهدف يمكن تحقيقه..."[1].

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet.

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Yours,
Arthur James Balfour

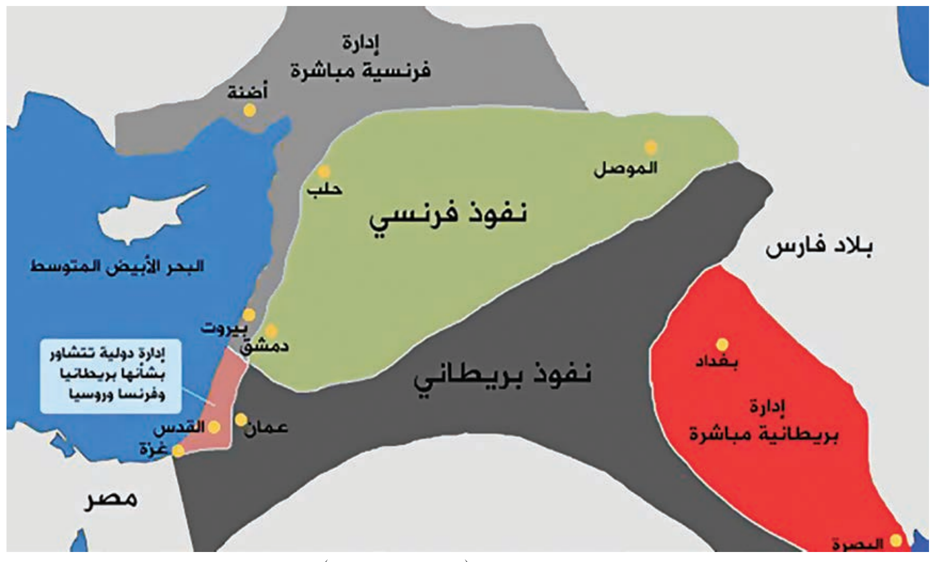
لقد كانت هذه الأحداث أشبه بمقدمة لصدور وعد بلفور الشهير في سنة 1917، الذي أعلنت فيه الحكومة البريطانية عن تعاطفها مع الأماني اليهودية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد أخذ الوعد شكل رسالة بعث بها اللورد بلفور في 1917/11/2: إلى اللورد إدموند روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونية آنذاك.

1 أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة عالم المعرفة (74)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، شباط/ فبراير 1984، ص 20.

وهذا الوعد الشهير أشبه ما يكون بمقولة إبادية تتجاهل وجود السكان الأصليين في فلسطين- فهي أرض بلا شعب- وتعطي اليهود حقًا في امتلاك هذه الأرض.

وفي مذكرةٍ كتبها اللورد بلفور بعد سنتين من إعلانه لوعد الشهير، نجد العبارات الآتية: "إن القوى الأربع العظمى ملتزمة بالصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية على خطأ أم على صواب، أو كانت شيئًا جيدًا أو سيئًا، فإنها متأصِّلة بعمق في تراث من الماضي البعيد وفي حاجات الحاضر وآمال المستقبل، وهي أهم بكثير من رغبات وتحيزات الـ 700 ألف عربي الذين يقطنون الآن تلك الأرض القديمة.."[1].

لقد كان وعد بلفور إمكانية كامنة في الحضارة الغربية تريد أن تتحقق لتوجد بالفعل، ولذا من الأفضل عدم النظر إلى وعد بلفور بمعزل عن "الوعود البلفورية" السابقة عليه أو اللاحقة له، أو عن المعاهدات الاستعمارية الدولية التي أبرمت في أثناء الحرب العالمية



مناطق توزيع النفوذ وفق اتفاقية سايكس بيكو (موقع الجزيرة)

1 كيث وايتلام، مرجع سابق، ص 203.

الأولى، وكانت تهدف إلى حلّ المسألة الشرقية عن طريق تقسيم تركيا، وأهم هذه المعاهدات اتفاقية سايكس – بيكو واتفاقية ماكماهون – حسين. كما من الأفضل عدم النظر إلى الوعد بعيدًا عن البراءات التي كانت تُعطى للشركات الاستيطانية في آسيا وأفريقيا، ولا عن تقسيم العالم من قبل القوى الإمبريالية الغربية وإعادة تقسيمه في سنة 1917.

ولذا قد يكون من المفيد محاولة فهم وعد بلفور في هذا الإطار باعتباره براءة لاستعمار فلسطين، الأمر الذي يتطلب إزاحة الديباجات العلنية للوصول إلى لبّ الموضوع، أي المصالح الاستراتيجية الغربيّة، حيث إن الاستعمار –بوضوح– صناعة أوروبية غربيّة مسجّلة ولكنها للتصدير إلى خارج الغرب وأوروبا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلي بمجال.

ووعد بلفور صيغة جديدة من البراءات الاستعمارية التي كانت تُمنح للمستوطنين الغربيين في آسيا وأفريقيا. وقد مُنحت براءة بلفور لليهود بعد تقسيم تركيا بطريقة لا تختلف عن البراءات التي أعطيت لبعض الشركات الغربية في أعقاب تقسيم أفريقيا في مؤتمر برلين. ويلاحظ من خلال صيغة الوعد، أنه مقولة تحتوي على مضامين عدة لعل أهمها تجاهل وجود السكان الأصليين في فلسطين.

وهكذا، التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخيًا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة: فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة، وحليفًا مضمونًا أبدًا، يخدم مصالح الاستعمار، وذلك ثمنًا لإيجاده إياه، وضمانة لبقائه. و"على طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالإمبريالية بحسب مركز الثقل في زعامة الإمبريالية، فكانت بريطانيا هي التي خلقت الوطن القومي منذ الحرب العالمية الأولى، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية"[1].

1 جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ، ص 135.

لذا، فإن "إسرائيل" –حتمًا– قطعة من الاستعمار الأوروبي الغربي، فهي جزيرة أوروبية على ضلوع آسيا، ومستعمرة غربية في قلب الوطن العربي، وذلك جنسيًّا وحضاريًا على السّواء.

وككل دعاوى الاستعمار الغربي عبر البحار، وتبريرًا لاغتصابها، لم تتورع "إسرائيل" عن أن تدعي رسالة الحضارة والتطوير، فزعمت نفسها واحة التقدم في صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة في بحر التخلف الشرقي.

وتأكيدًا على رسوخ مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" في بنية المشروع الصهيوني الإحلالي، يمكن القول: إذا صح التمييز في الاستعمار بين النمط اللاتيني الذي يضيف المستعمرين إلى الأهالي الأصليين بلا إبادة عامة كما حصل في أمريكا اللاتينية أو الجزائر، وبين النمط السّكسُوني الذي يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالي الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما في أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن "إسرائيل" تقع بالتأكيد في النمط السكسوني. ومع ذلك فهي لا تتميز عنه بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار الاستيطاني، فهي تجمع بين أسوأ ما في هذه النماذج، ثمّ تضيف إليه الأسوأ منه.

هي كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرًا محققًا من إبادة الجنس، وهي كجنوب أفريقيا تعرف قدرًا محققًا من العزل الجنسي، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت قسمًا كبيرًا من السكان الأصليين "خارجها" تمامًا ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين مُعلقين على "حدودها".

من هنا فإن الإرهاب الصهيوني جزءٌ عضوي من الرؤية الصهيونية، كامن في بنيتها. فـ"هذه الرؤية تفترض غياب العربي وضرورة إبادته إذا وُجد، إذ إن وجوده سيُفشل الخطة والمخطط"[1].

---

1 عبد الوهاب المسيري، الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية، ص 227.

وقد كتب هرتزل في يومياته عن الطُرق والوسائل المختلفة لنزع ملكية الفقراء، ونقلهم، و"استخدام السكان الأصليين في نقل الثعابين وما شابه ذلك، ثمّ إعطائهم وظائف في دول أخرى يقيمون فيها بصفة مؤقتة"[1]، وطرد السكان أمر حتمي، حتى يتسنى إقامة دولة يهودية خالصة لا تشوبها أيّ شوائب عرقية أو حضارية أخرى. فظهور الفلسطيني على المسرح سيكشف الأسطورة الصهيونية، في حين أن الأرض المقدسة الخالية هي أرض بلا شعب، في انتظار سكانها "الأصليين" منذ آلاف السنين. ولذا فليس من الغريب أن نكتشف أن معظم الزعماء الصهاينة، قد طالبوا بتفريغ فلسطين من سكانها ونقلهم إلى البلاد المجاورة. كما يقول جوزيف وايتز، مسؤول الاستيطان في الوكالة اليهودية: "إنه، هو وغيره من الزعماء الصهاينة، قد توصلوا إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد مكان لكلا الشعبين (العربي واليهودي) في هذا البلد. وإن تحقيق الأهداف الصهيونية يتطلب تفريغ فلسطين، أو جزء منها، من سكانها، وإنه ينبغي لذلك نقل العرب، كل العرب، إلى الدول المجاورة، وبعد إتمام عملية نقل السكان هذه ستتمكن فلسطين من استيعاب الملايين من اليهود"[2].

وهكذا فإن إفراغ فلسطين من سكانها هو هدف صهيوني، ولكي يحقق الصهاينة مخططهم تبنوا تكتيكات مختلفة، أهمها العنف والإرهاب. وقد اتهم عالم الاجتماع النمساوي لودفيج جومبار فيتش هرتزل بالسذاجة السياسية. ثمّ طرح عليه سؤالاً بلاغيًا بصورة ساخرة: "هل تريد أن تؤسس دولة بدون سفك دماء؟ بدون عنف أو مكر؟ هكذا بالتقسيط المريح؟"[3]. من المؤكد أن العنف والمكر هما الأداتان اللتان استخدمهما الصهاينة. ويتمثل المكر في نشر الذعر والرعب بين السكان، أي الحرب النفسية، التي تصاعدت حدتها في المرحلة الأخيرة.

---

1 عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، القسم الثاني سلسلة عالم المعرفة (1)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1982، ص 67.

2 المرجع نفسه، ص 68.

3 Elon Amos, The Israelis: Founders and Sons, New York, Holt, Rinhart, and Winston, 1971, p 161.

وقد "احتوت الخطة الإسرائيلية "دالت" التي أقرت في سنة 1948، على تشكيلة من أساليب التطهير المتطابقة، أسلوبًا تلو الآخر، مع أساليب التطهير الموصوفة، في التعريف الذي وضعته الأمم المتحدة للتطهير العرقي، وشكلت الخلفية للمجازر التي رافقت الطرد الجماعي"[1].

وقد علَّق الرئيس الأول لـ"إسرائيل" حاييم وايزمان على نتائج الإرهاب والمكر الصهيونيين قائلًا: "إن خروج العرب بشكل جماعي كان تبسيطًا لمهمة إسرائيل ونجاحًا مزدوجًا: انتصار إقليمي، وحل ديمغرافي نهائي. إن الأرض، بعد تفريغها من سكانها، أصبحت بلا شعب حتى يأتي الشعب الذي لا أرض له"[2].

حاييم وايزمان

إن من أهم الأشكال الأساسية للعنف الصهيوني رفض الصهاينة قبول الواقع والتاريخ العربي في فلسطين. ولذا يستبعد الصهاينة العناصر الأساسية (غير اليهودية) المكونة لواقع فلسطين

1 إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، ترجمة أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 2007، ص 10.

2 عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، ص 78.

وتاريخها من وجدانهم ورؤيتهم وخريطتهم الإدراكية. والصهيونية نشأت في تربة أوروبا الإمبريالية التي سادت فيها الفلسفات النيتشوية والداروينية التي تتخطى الخير والشر وتُحوسِل* العالم والناس بحيث يصبح الآخر مجرد أداة أو شيئًا يُستخدم. ومع هذا يظل العنف الصهيوني ذا جذور خاصة تمنحهُ بعض السّمات المميزة: الصهيونية لم تكن حركة استعمارية وحسب، وإنما هي حركة استيطانية إحلالية (أرض بلا شعب)، وهو ما يعني ضرورة أن تُخلي الأرض التي سيُنفذ فيها المشروع الصهيوني من السكان الأصليين، ولا يمكن أن يتم هذا إلا من خلال أقصى درجات العُنف النظري والإرهابي الفعلي.

ويمكن القول إن شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" هو شعار صهيوني يصعب معرفة تاريخ ظهوره، ولكن يمكن القول بأنه صياغة مُعلمنة للرؤية الإنجيلية القائلة بأن فلسطين أرض الميعاد والأرض المقدسة، وأن اليهود هم الشعب المقدس، ومن ثمّ فالشعب المقدس لا بدّ أن يعود للأرض المقدسة، فهو صاحبها. ويبدو أن الكاتب اليهودي الإنجليزي إسرائيل زانغويل هو صاحب هذه الصياغة.

ومهما كان الأمر، فهذا الشعار السوقي الساذج إفراز طبيعي للخطاب الحضاري الغربي الحديث، الذي ينبع من الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي قامت بعلمنة الرؤى الإنجيلية وحوّلتها من صياغات مجازية تتحقق في آخر الأيام بمشيئة الإله إلى شعارات استيطانية حرفية تتحقق الآن وهنا وبقوة السّلاح. وهذه الرؤية للكون (الطبيعة والبشر) باعتباره مادة استعمالية، تضع الإنسان الغربي في المركز، ومن ثمّ يصبح العالم كله فراغًا بلا تاريخ وبلا بشر، وإن وُجد بشرفهم مادة استعمالية عرضية لا قيمة لها، ومن ثمّ تصبح فلسطين أرضًا بلا شعب، ويُصبح الفلسطينيون مادة استعمالية لا قيمة لها في حدّ ذاتها.

* تحوله إلى وسيلة

ويتّسم شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" بتناسقه اللفظي السّاحر، فهو ينقسم إلى قسمين متساويين يستخدم كل قسم القدر نفسه من الكلمات، وكلمة "بلا" في القسمين هي المركز الثابت والعنصر المشترك وما يتحرك هو كلمتا "الأرض" و"الشعب" فيتبادلان مواقعهما تمامًا كما سيتبادل اليهود والعرب مواقعهم.

ويتّسم الشعار بالتماسك العضوي والوحدة الكاملة، فلا يوجد حرف زائد ولا توجد كلمة ليست في موضعها، وهو تعبير جيد عن رؤية الخطاب الحضاري الغربي الحديث، الذي يفضل الصيغ الجميلة المتماسكة لفظيًا، بحيث تصبح الصيغة ذاتها مرجعية مكتفية بذاتها كالأيقونة. وقد ينبهر المرء بجمال العبارة فينسى أنها عبارة إبادية، تعني اختفاء العرب وتغييبهم. وما يزال إدراك العالم الغربي للفلسطينيين يتحرك في إطار مقولة "أرض بلا شعب"، ومن هنا سلوكه الذي قد يبدو غير عقلاني بالنسبة لنا كعرب.

الخاتمة

لقد استغلت الصهيونية السياسية ميدان اللاهوت ولا سيما موضوعة "الاختيار"، وذلك لاستثارة التفوق الذي يقدم كأيديولوجية للتبرير. وفكرة الشعب المختار فكرة طفولية تاريخيًا، وإجرامية سياسيًا، لأنها قدست أعمال العدوان والتوسع والسيطرة. وهي لا تُقبل لاهوتيًا، لأن فكرة المختار تنطوي على المُستبعِد.

وكل سياسة تزعم أنها تستند إلى هذه الأسطورة تعود إلى نفي للآخر (الأرض التي بلا شعب). كما تلاقت مباحث الدراسات التوراتية —المدفوعة بدافع لاهوتي— مع البحث عن "إسرائيل" الحديثة المدفوع بدوافع سياسية، فتسترت حكاية امتلاك الماضي تحت قناع الموضوعية والبحث العلمي.

ونتيجة ذلك ظهرت فئتان في حقل علم الآثار التوراتي:

فئة عدد من الآثاريين الذين يمسكون مِعولًا بيد وتوراة باليد الأخرى، وهي فئة تفرض معتقداتها على المكتشفات الأثرية. وفئة ترفض سجلات التوراة كليًا بعد أن أظهرت التنقيبات وتظهر أن لا علاقة بين ما يجده علماؤها بين أيديهم وبين المعتقدات التوراتية. وما أصاب علماء الآثار التوراتيين من يهود ومستشرقين هو أشبه بالهوس الأيديولوجي الذي يصيب المنقب الباحث عما يريد لا عمّ يجده فعلًا.

ومأزق آخر وقعت فيه الصهيونية السياسية، هو القول بأسطورة الاستمرار اليهودي والتجانس السلالي، وكلها مصطلحات تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يقال لها "اليهود" احتفظت بهويتها المستقلة، رغم وجودها في أزمنة مختلفة.

ويمكن القول إن مقولات مثل "الشعب اليهودي" و"القومية اليهودية" هي حقيقة الأمر برنامج إصلاحي فاشي أو رؤية للمستقبل، وليست وصفًا لما هو قائمٌ بالفعل، وهي مقولات

مثالية تفصلها عن الواقع مسافة واسعة شاسعة. ولهذا المستقبل في أدبيات الصهيونية رؤية واحدة، هي استعمار فلسطين. وقد سهّل ذلك أن هذه الفكرة -استعمار فلسطين- كانت كامنة كذلك في النسق الاستعماري الغربي وخرجت لحيِّز التنفيذ عند تشكّل إطار سياسي يمثل الجماعات اليهودية وهو الحركة الصهيونية.

ويُعدّ شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" إفراز طبيعي لهذا النسق الاستعماري الغربي الحديث، الذي ينبع من الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي قامت بعلمنة الرؤى الإنجيلية وحولتها من صياغات مجازية تتحقق في آخر الأيام بمشيئة الإله إلى شعارات استيطانية حَرفية تتحقق الآن وهنا وبقوة السلاح.

المراجع

أولًا: المراجع باللغة العربية:

1. أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة عالم المعرفة (74)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، شباط/ فبراير 1984.
2. إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، ترجمة أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2007.
3. توماس كيرنان، العرب، طبعة ليتل بروان، بوسطن، 1975.
4. جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ.
5. جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، دار الهلال، القاهرة، 1996.
6. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1973.
7. روجيه غارودي، إسرائيل بين اليهودية والصهيونية، ترجمة حسين حيدر، دار التضامن، بيروت، 1990.
8. رودريغو مارتن غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، ترجمة خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1998.
9. شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، ترجمة أنطون شلحت وأسعد زعبي، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله، 2013.
10. شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله، 2011.

11. عبد الوهاب المسيري، الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1990.

12. عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، القسم الثاني، سلسلة عالم المعرفة (1)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1982.

13. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلد 1، دار الشرق، القاهرة، 2003.

14. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلد 2، دار الشرق، القاهرة 2003.

15. كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة (249)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999.

16. مكسيم رودنسون، شعب يهودي أم مسْألة يهودية، منشورات ماسبيرو، 1981.

ثانيًا: المراجع باللغة الإنكليزية:

1. A.L Tibawi, British Interests in Palestine 1800 – 1901, London, 1961.

2. Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons, New York, Holt, Rinhart, and Winston, 1971.

3. Franz Kobler, The Vsion was There, London, 1956.

4. Peter James, Centuries of Darkness: A Challenge to the Conventional Chronology of Old word Archaeology, Pimlico, London, 1992.

5. S.W Baron, A Social and Religious History of the Jews, New York, 1937.

ثالثًا: الصحف والمجلات:

1. مجلة لالتر، العدد 313، تشرين ثانٍ/نوفمبر، 1984.

الإدارة العامة
شارع الحمرا - بناية السارولا - الطابق 11
هاتف: 00961-1-751725
فاكس: 00961-1-751726
ص.ب: 113-5647 بيروت لبنان
info@alquds-online.org
www.alquds-online.org





